العظمة الخالدة

ليس منا أيها السادة من يجهل طباع القوم الذين ولد بينهم الرسول عليه الصلاة والسلام لقد كانوا على جانب كبير من الخشونة والفظاظة والتعصب والضلال والاستبداد والظلم . واجه النبي أولئك القوم بنفس حائرة متأملة نفس لم تكن تملك من أمرها إلا قوة الإيمان وصلابة الرأى وصدق الجهاد ، ألفت قسوة اليتم والرعى فى طفولتها ، وذاقت مرارة الاضطهاد والحزن فى شبابها ، ثم هنئت بنشوة الفتح والنصر فى شيخوختها .

ما كاد النبي صلى الله عليه وسلم ينهض باعباء رسالته حتى اصطدم بعالم يسوده الفوضى واستبداد الحاكمين فعود نفسه على إيثار الخير والحب للغير ، وكلها بالخلق والأمانة، وروضها على الصبر واحتمال المتاعب ،ولاحتمال المتاعب أيها السادة حدود مهما صبر الانسان وصابر ، وحدوده لم تكن فى نفس الرسول العظيم لنفسه ولكنها كانت فى نفسه لغيره، فلم نسمع عنه أنه همس بالشكوى أو جاهر بها كانت عناصر الشر لا تألو جهدا ولا تدخر وسعا فى أن تذيق محمداً وصحبه من الأذى الوانا ومن العذاب ضروبا ، ولما عجزت عن ثنى محمد وحمله على ترك دعوته لجأت إلى عمه أبى طالب تشكوه وتطلب منه أن ينصحه بالكف عن تسفيه أحلامها ، وتحقير أصنامها ، والنيل من كبريائها ولكن أبا طالب يخيب ظنها ويقول للرسول بعد ما لمس فيه قوة العقيدة وعدة الإيمان ومواطن الشجاعة يقول له « إذهب يا ابن أخى فقل ماأحببت فو الله لاأسلمك لشىء تكرهه أبدا »

ومضى الرسول عليه الصلاة والسلام يجاهد بالصبر ويصاول بالحجة ، ومضت عناصر الشر تدفع الحجة بالأذى وتقابل الصبر بالنزق والجنون ، ومرت الأيام وفجع الرسول بموت عمه وزوجه، وشعر بأنه يقف وجها لوجه مع المشركين ، فلم يجد ، مناصا من استعمال القوة مع أناس لا يفهمون إلا سياسة الحزم والقوة ، ولكن قبل أن يلجأ الرسول إلى الحزم والقوة نرى حادثا عظيما يستحق أن نقف عنده ونتأمله ذلك أن أبا جهل رأى الوقت مناسبا ليعذب الرسول ويقسو عليه فى صحبه ، ودفعته نزعة الشر إلى أن يرتكب أبشع الجرائم فى حياته وظل يجلد سمية آناء الليل واطراف النهار ، وتعجل نهايتها بعد تعذيب مضن طويل بطعنة من يده فقضى عليها ، ثم دفعته نزعة الشر للمرة الثانية وتفنن مع المنافقين فى تعذيب زوجها ياسر ولم يتركوه إلا جثة هامدة ، ولم يسلم ابنهما عمار من قسوة العذاب وهو الذى آمن بدعوة الرسول وجاهر بها بين أمه وأبيه حتى أسلما .

حكم المشركون على أم عمار وأبيه ياسر الموت ، واستشهد عمار فى معركة صغيرة وكتب لآل ياسر الخلود والجنة .

هذه صفحة ناصعة من صفحات التضحية فى سبيل المبدأ والعقيدة ، وتضحية المسلمين فى ميادين الفتح والكفاح لم تكن أقل منها فى بداية عهدهم فى الاسلام ، فخلد الدهر أبطالا شهد العالم لهم بالكفاءة الحربية والاستبسال والمهارة الفنية فى قيادة الجيوش ، وكتب التاريخ تحدثنا حديثا مستفيضا رائعا عن عبقرية خالد بن الوليد قاهر القياصرة ، وسعد مذل الأكاسرة ، وقتيبة الباهلى الذى اكتسح جميع القوى التى اعترضت سبيله فى آسيا الوسطى حتى وغل فى بلاد الصين ، ثم البطل الفاتح عقبة بن نافع الذى خوض جواده بعد معركة مظفرة فى مياه المحيط الاطلسى حتى إذا جاوز الماء صدر جواده شهر سيفه وهتف من أعماق قلبه « يارب لولا هذا البحر لمضيت فى سبيل إعلاء كلمتك مجاهدا » .

بعد تلك القوة والعظمة والبطولة التى حمل الرسول ومن بعده عظماء الإسلام مشاعلها الوهاجة فى الشرق والغرب نرى كثيرا من رجال الغرب يعيبون علينا تفكيرنا التجريدى ويردون هذا التفكير الجامد إلى شريعتنا ، والأسف الشديد أن هذا الزعم وجد فى نفوس كثير من المسئولين فى الشرق هوى وقبولا فانطلقوا يتطفلون على من عابهم وهضم حقوقهم « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون »

ولو أنهم تفهموا شريعتنا لوجدوها شريعة واقعية لا تجر يديه كما يزعمون وآية ذلك أيها السادة أن الأمبراطورية الإسلامية التى كمل لها عظمتها فى عهد الفاروق عمر قامت على أسس ثلاث هى نفس الأسس التى قامت ولا تزال